مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 39- عدد 1 (2023): 49-63

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 39 No.1 (2023):49-63

الأدبُ الجغرافيّ عند ابنِ فضلِ اللهِ العمريّ

وطفه قطيمان[1]، أ. د. محمود سالم محمد[2]

1 طالبة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

2 أستاذ دكتور في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

الملخص:

كتب ابن فضلِ اللهِ العمريّ القسم الجغرافي في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار بأساليب متباينة، فنقل بعض النصوص عن أمهات الكتب نقلاً نصياً، وتصرف قليلاً في نقل بعضها الآخر، في حين كتب بعض المعلومات الجغرافية التي نقلها عن الثقات، وعن شيوخه الذين برعوا فيها بلغةٍ أدبيةٍ عاليةٍ، وبأسلوبٍ سلسٍ قلما اعتاده الجغرافيون.

ويتلمس القارئ للقسم الجغرافي من المسالك أنَّ العمريّ بناه مستعرضاً معلوماته الجغرافية، وملكاته الأدبية التصويرية، وخيالاته المبتكرة، واستطاع أن ينقل المعلومات الجغرافية بدقة فائقة، وبأسلوب فنيّ شائقٍ.

واعتمدتْ هذه الدراسة في خطَّتها على المنهج الوصفي التحليلي، وسعت للإجابة عن تساؤلات تدور في ذهن القارئ، منها: هل طُبع التأليف الجغرافي عند العمري بطابع أدبي؟ وهل استطاع العمري المحافظة على القيمة العلمية للنص عندما صاغه بأسلوب أدبي؟ وهل أضاف هذا العالم الأديب شيئاً ذا قيمة للجغرافية؟

وقد هدفت الدراسة إلى عرض بعض النصوص الجغرافية التي طُبعت بطابع الأدب الرفيع، واستخراج ما فيها من صنوف البلاغة والبديع، وتحري القيمة العلمية فيها.

وانتهت الدراسة إلى بَعضِ نتائجَ مبنيَّةٍ على ما جاءَ فيها، فوضحت كيف استطاع هذا العالم الجمع بين القيمتين النفعية والجمالية.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجغرافي، ابن فضل الله العمري، العصر المملوكي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

Geographical Literature in Ibn Fadlallah al-Umari's Work

Watfa Kutaiman[3] **Pr. Mahmoud Mohammad**[4]

3 PhD student, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities Damascus University

4 Assistant Professor, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, Damascus University

Abstract:

This research studies the geographical litera ture in Ibn Fadlallah al-Umari's work as well as his geographical writing in Masalik Al Absar which is divided into two sections. The first section, where he talks about Masalik(earth, the seven climes,the seas, the qibla and the roads , is spanned across two volumes while the second section, in which he discusses Al-Mamalik(the kingdoms), is spanned across the th ird and fourth volumes.

The research studies the geographical texts written using literary style. It also examines the art of rhetoric and schemes and explains how al-Umari's managed to keep his writings informative and enjoyable utilizing elevated language. This style made him deserving of his title as a scientist and a writer.

Keywords: Geographical Literature, Ibn Fadlallah al-Umari's, Literary Geography, Literature, Geography

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

المقدمة:

لا شكَّ في أنَّ علماء الجغرافية قد اتخذوا الطرق التقليدية للتأليف الجغرافي بنقل مادته العلمية بلغة واضحة بسيطة بعيدة عن الخيال والصنعة، أما العمري[1] فقد كتب القسم الجغرافي في مسالك الأبصار بأساليب متباينة، فبنى بعض نصوصه بأسلوب واضح بسيط بعيد عن الصنعة، وكتب المعلومات الجغرافية التي جمعها واصطفاها بلغة عالية، فصب فيها مهاراته الأدبية، ولفّها بالصور الجمالية، والمحسنات البديعية، وغير ذلك مما يلامس القلب قبل العقل.

وتفنن في كتابتها مستعيناً بذخيرته اللغوية الغزيرة، وبراعته التصويرية، وخياله الخصب، وصنع ما يسمى الجغرافية الأدبية.

وقبل الولوج إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العمري لابد من التعريف بالجغرافية الأدبية، والحديث عن نشأة علم المسالك والممالك؛ لندرك ماهية الأدب الجغرافي عنده، ولنفهم آلية حفظ الجغرافية عبر قوالب أدبية نافعة ماتعة.

الجغرافية الأدبية: ظهرتْ الجغرافية الأدبيةُ في القسمِ الثَّانِي من القرنِ الثالث الهجريّ ومطلعِ القرنِ الرَّابِع، بعدَ ازدهارِ حركةِ الترجمة، ونقل أمهاتِ الكتبِ الجغرافيةِ عن بطليموس وغيرِهِ، ولم تكنْ هنالكَ مصنفاتٌ جغرافيةٌ قائمةٌ بكلِّ معنى الكلمةِ، إنَّما تناثرتْ بعضُ المَعْلُوْمَاتِ الجغرافيةِ ضمنَ كتبِ الأدبِ، ومع ظهور هذه الترجمات، وتداولها بدأت سلسلة الجغرافية العلمية بالظهور، وسرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافية الوصفية، وبلغ الأدب الجغرافي ذروته في القرن الرابع الهجري، وذلك إثر ظهور مؤلفات من نوع المسالك والممالك، ويمكننا القول: إنَّ هذا القرن كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية[2].ويرى أحد الباحثين أن علم المسالك والممالك قد نشأ في أوجِ ازدهارِ الخلافةِ العَبَّاسِيَّةِ، عَلَى يدِ عددٍ من المصنفينَ وكُتابِ الدواوينِ الذين كانتْ تتجمعُ بين أيديهم معطياتٌ كثيرةٌ عن الطرقِ والمسالكِ والخراجِ والواراداتِ والنفقاتِ، وأسماءِ المواضعِ، ويعدُّ كتاب ابن خرداذبة[3] "المسالك والممالك" الذي وضعه سنة 232هـ فاتحةَ هذا العلم، وقَدْ كتبهُ بعد أن تولّى البريدَ والأخبارَ في بلادِ الجبلِ[4] في عهدِ المعتمدِ العَبَّاسِيّ، وتطورَ هذا العلم تطوراً مطّرداً، إلى أن بلغَ ذروتَه في القرنينِ اللاحقينِ، ثُمَّ تطوَّرَ في صدرِ العصرِ المملوكيّ عَلَى شكلِ موسوعاتٍ كوزموغرافية[5] لَعَلَّ أشهرها وأهمها موسوعة مَسَالِك الأَبْصَارِ في ممالك الأمصار لابن فضل الله العُمَرِيّ، واختُتِمَ بكتابِ

---

1 – ابنُ فضلِ اللهِ العمريّ: هو أحمدُ بن يحيى بن فَضلِ اللهِ العمري، يعود نسبه إلى عمرَ بن الخطَّابِ، كنيتُه: أبو العَبَّاسِ، لقبُه: شِهَابُ الدِّينِ، ولد في الثالث من شهر شوال، عام700هـ، ونشأ في بيتٍ من بيوتاتِ العربِ المُعْرِقَةِ في الأدبِ؛ إذ عملَ عددٌ كبيرٌ من ذويهِ في ديوانِ الإنشاءِ وكتابةِ السرِّ في أزهى أيامِ الدولةِ المَمْلُوكِيَّةِ لأكثر من قرنٍ من الزمنِ، ولا سيما أيام سلطنةِ آل قلاوون. أخَذَ عن كثيرٍ من الشيوخِ والعلماء، ونظم كثيراً من القصائد والأراجيز والمقطعات ودوبيت، وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع والأصدقة. كتبَ الإنشاءَ بدمشق، ثم وليَ والده كتابة السرّ بدمشق، ثم طُلب إلى مصر هو ووالده في سنة 728هـ، وباشر والده كتابةَ السرِّ بمصر، ثم خرج مع أبيه إلى دمشق، ثم عاد إليها معه في سنة 733هـ، وأقام إلى بعض سنة 736هـ، وهو في المرتبين الأولى والثانية يدخل يقرأ البريد على السلطان، وفي الثانية جلس في دار العدل ووالده القاضي محيي الدين كاتب السر. ومن آثاره المطبوعة: كتاب مَسَالِكِ الأَبْصَارِ في ممالك الأمصار، كتاب التعريف بالمصطلح الشريف، كتاب عُرْفُ التعريفِ في المكاتباتِ، كتاب ذهبيَّة العَصْرِ، كتاب الشتويات، كتاب الدّرر الفرائدُ من غُرَرِ القلائدِ، ومن آثاره التي لم تُطبَعْ: دمعة الباكي ويقظة الساهر، المبكيات، الترسلُ في قواعدِ المكاتباتِ، فواضل السمرِ في فضائل آل عمر، صَبَابَة المُشْتَاق، الدَّعْوَة المُسْتَجَابَة، سفرة السفرة، نَفْحَة الرَّوْض، الجوَاهِر المُلتَقَطَة، تذكرة الخاطر. توفي لمَّا وَقع الطَّاعُون بِدِمَشْق سنة 749هـ. انظر: **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ**، صلاح الدين الصفدي، 163/8–174 (1348)، **فَوَات الوَفَيَات**، محمد بن شاكر الكتبي، 157/1(60)، **المُقَفَّى الكَبير**، تقي الدين المقريزي، 732/1 (677)، **المَنْهَل الصَّافِي والمُسْتَوفِي بعدَ الوافِي**، يوسف بن تغري بردي، 262/2 (338)، **الدُّرَر الكَامِنَةُ في أعيانِ المئةِ الثامنةِ**، ابن حجر العسقلاني، 331/1(828)، **أَعْيَان العَصْرِ**، صلاح الدين الصفدي، 418/1–419 (218).

2 – انظر: **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، د. عبد الرحمن حميدة، ص 59.

بطليموس القلوذي: إمام فِي الرياضة، من علماء اليونان، وإليه انتهى علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك، وهو أول من عمل الإصطرلاب الكري والآلات النجومية وسطح الكرة والمقاييس وآلات الأرصاد، ومن كتبه "الجغرافيا"، و"المجسطي". **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، جمال الدين يوسف القفطي، ص67–68.

3 – هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، أبو القاسم، كان مجوسياً أسلم على يدي البرامكة، ثم تولى البريد والخبر بنواحي الجبل، ونادم المعتمد، وخص به، ومن تصانيفه: كتاب المسالك والممالك، كتاب أدب السماع، كتاب جمهرة الأنساب للفرس، كتاب الأنواء، كتاب الندامى والجلساء. انظر: **الوافي بالوفيات** 229/19 (7447)، **كشف الظنون**، 1665/2.

4 – بلاد الجَبَل: والعامة تسميها عراق العجم، ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن جهة الشّمال بلاد الدّيلم وقزوين والرّيّ عند من يخرجهما عن بلاد الجبل ويضمهما إلى الدّيلم من حيث إن جبال الديلم تحفّ بهما. **انظر: صبح الأعشى**، القلقشندي 366/4، **الكتاب العزيزي (المسالك والممالك)**، الحسن بن أحمد المهلبي 145–147.

5 – "رسم الدُنْيا: كوزموغرافيا، وصف عام للكون، علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه." **تكملة المعاجم العربية**، رينهارت دوزي،137/5.

زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري (ت:873هـ)[1]، وبينَ كتابِ ابن خرداذبة وكتاب الظاهري ظهرتْ مؤلّفاتٌ كثيرةٌ تحملُ الاسمَ نفسَه، أي «المسالك والممالك» أو شيئاً قريباً منه.2

التأليف الجغرافيّ في مَسَالِكِ الأَبْصَارِكانَ العُمَرِيّ عالماً بالجغرافية، غزيرَ المعرفةِ بها، فقد "عَرَفَ مسالكَ الأرضِ ومماليكِها، وحَذَقَ في علمِ الإصطرلابِ، وحلّ التقويم"[3]، ودرسَ عَلَى أيدي نخبةٍ من العلماء الذين برزوا فيها كالعالمَين شمسِ الدينِ الأَصفَهَانِيّ[4]، وابنِ الفركاحِ[5].

وقد امتد التَّأْلِيْف الجغرافيّ عندَه على أربعةِ مجلداتٍ، وجعله على نوعين، الأولُ في ذكرِ المسالكِ، والثَّانِي في ذكرِ الممالكِ.

النوعُ الأولُ: المَسَالِكُ (المجلدان الأول والثاني):

جعلهُ العُمَرِيّ في خمسةِ أبوابٍ: الأولُ في مقَدار الأرضِ وحالِها، الثَّانِي في ذكرِ الأقاليمِ السبعةِ، الثالث في البحار وما يتعلَّقُ بِها، الرَّابِعُ في القِبْلَةِ والأدلةِ عليها، الخامسُ في ذكرِ الطُّرُقِ:

* افتتح العمري الباب الأول معرفاً بالأرض فقال[6]: "الذي نبدأُ به، بعون الله وقدرته، في القول في هذا الفصل، ما قام عليه البرهان، وهو أن العالم كُريّ، ويدل عليه المشاهدة بالعيان لمن رعى الشمس في مطلعها إلى مغيبها؛ وكذلك النجوم من مشارقها إلى مغاربها؛ لأنها تطلع حتّى تتوسّط السماء تقويساً، ثم تنحطّ حتّى تغيب عن العين كذلك، فتقطع نصف دائرة، فعُلم بالضرورة أنها تقطع في الغيبوبة عن العين نصف دائرة، نظير ما قطعت في الظهور، ليكمل تمام الدائرة".

الطابع الجغرافي للنص: إذا تأملنا هذه المقدمة البسيطة بدا لنا أن العمري صاغها بلغة بسيطة سهلة واضحة، وبأسلوب علميّ منطقيّ بعيد عن الصنعة، فبدأ بفرضية كروية الأرض، وقدم الأدلة والبراهين التي تؤيد صحتها وهي الحركة الدائرية للشمس والنجوم حولها، وخرج بنتيجة تعزز هذه الفرضية، وقد نمَّ هذا الأسلوب على فكرٍ واعٍ، وعقل علمي دقيق ملمّ بالقضايا التي يناقشها.

الطابع الأدبي للنص: ولم تغبْ روح الأديب عن النص، فقد رسم صورة للمتأمل وهو يرعى الشمس والنجوم وهي تطلع حتى تتوسط السماء تقويساً، ثم تنحط حتى تغيب عن العين، وبنى عباراته بأسلوب أدبيّ لطيفٍ بايَنَ فيه بين حَالَي الشمس والنجوم بالمطابقة بين "مطلعها–مغيبها"، "مشارقها–مغاربها"، "تطلع–تغيب"، "الغيبوبة–الظهور"، وبذلك يكون العمري قد كتب بعض نصوص الجغرافية بلغة أدبية لطيفة بعيدة عن الجفاف.

---

1 – هو غرس الدين الشيخي، شيخ الصفوي الظاهري برقوق، ويعرف بابن شاهين، من أمراء المماليك في مصر، حفظ القرآن واشتغل ونظم فأكثر، كان محمود السيرة، وله تصانيف كثيرة في الفقه والتفسير والتعبير والتاريخ والإنشاء وغيرها، منها المواهب في اختلاف المذاهب، والمنيف في الإنشاء الشريف، زبدة كشف الممالك، في بيان الطرق والمسالك في فضائل مصر، وأعمالها، وتعظيم سلطانها، وأمرائها، توفي عام 873هـ. انظر: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين السخاوي، 3/195–197 (748)، **كشف الظنون**، 953/2.

2 – انظر: **المسالك والممالك**، ص5–6 (المقَدمةُ).

3 – **المقفى الكبير** 733/1.

4 – هو محمود بن عبد الرحمن بن أحمد (ت: 749هـ): قدوةُ العلماءِ والحكماءِ والفقهاءِ والفقراءِ، ومفسرٌ عالم بالعقليات، قصَّ على ابن فضل الله تاريخَ المغولِ وأخبار بغداد، وقرأ عليه الأصول. انظر: **مَسَالِكِ الأَبْصَارِ في ممالكِ الأمصارِ** 9/132–142(38)، **أَعْيَان العَصْرِ** 1/418، **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ** 8/164، قيل إنه تخيلَ وجودَ أمريكا بالاستدلالِ العقليّ والمنطقيّ، وقَدْ نقل عنهُ العُمَرِيّ أقوالاً كثيرة في المسالكِ، كقوله: "لا أمنعُ أن يكونَ ما انكشفَ عنهُ الماءُ من الأرضِ من جهتِنا، منكشفاً من الجهةِ الأخرى، وإذا لم أمنعْ أن يكونَ منكشفاً من تلكَ الجهةِ، لا أمنعُ أن يكونَ بهِ من الحَيْوَان والنَّبَات والمعادنِ مثل ما عندنا، أو من أنواعٍ وأجناسٍ أخرى". **مَسَالِكُ الأَبْصَار** 1/134، وبذلك يكون الشيخ قد سبقَ كريستوف كولومبس بقرابةِ قرنٍ ونصف إلى اكتشافه الذي ادعاه. انظر: **المصدر نفسه** (الحاشية).

5 – هو برهانُ الدين، إبْرَاهِيم بن عبد الرَّحْمَن الفزاريّ (ت: 729هـ): الشَّيْخ الإمَام شيخ الشَّافِعِيَّة أَبُو إِسْحَاق الْفَزَارِيّ الصعيديّ الأَصْل، الدِّمَشْقِيّ مدرس البادرائية وَابْن مدرسها، برع فِي الْفِقْه، وتفنن وجوَّد الْكِتَابَة. انظر: **الوَافِي بِالوَفَيَاتِ** 6/30–31 (127)، و8/164، **مَسَالِك الأَبْصَارِ** 6/242–244(51)، وقد صنع مصنفين جغرافيين شهيرين دوَّنَ فيهما مَعْلُوْمَاتٍ قيمةً عن جغرافيا الشامِ وفلسطينَ، وهما الإعلامُ بفضائلِ الشامِ، وباعثُ النفوسِ إلى زيارةِ القدسِ المحروسِ. انظر: **كشف الظنون**، مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، 1/127، و1/218.

6 – **مسالك الأبصار** 1/122.

* وقال العمري في حديثه عن الأنهار[1]: "ومن ذلك نهر النيل، وهو النهر الأعظم الذي لا يعدلُه في عظيم نفعه شيء؛ لعظم ما عليه من البلاد، وطوله في الأُمم، وهو ينصبّ من جبل القُمر، وقد قدمنا عند ذكر الجبال طرفاً فيه، وإن كان لا مقال يوفّيه؛ لأنه إحدى الكُبَر، وأولى العِبر، آية من آيات الله في أرضه، وعجيبة لمن تأمل من خلقه، ساقه الله تعالى إلى مصر، وأحيا به بلدة ميتاً، وسقاه أمةً عظمى، وإن لم تكن هي المتفرّدة بنفعه، فإنها كالمتفرّدة به؛ لعظيم منفعتها منه، وعميم مصلحتها به، يجيء إليها أحوج ما كانت إلى مجيئه، وينصرف أحوج ما كانت إلى انصرافه، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [2]، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3]".

الطابع الجغرافي للنص: تكلم العمري على نهر النيل كأيّ جغرافيٍّ آخر، فذكر جانباً من عظمته ومنافعه، وتحدَّث عن انصبابه من جبل القُمر، ووصف طوله العظيم، وعدَّ المنافع الكبيرة التي تنالها مصر بمروره فيها، وخروجه منها.

الطابع الأدبي للنص: إلا أن العمري لم يصغ نصَّه كما تصاغ النصوص الجغرافية عادةً، بل كتبه بلغة أدبية عالية، وبأسلوب بلاغيٍّ بديع، فحافظ على شرف المعلومة، وجمال العبارات التي حملتها، وشحن النص بعاطفة الحب القوية، فهو عاشق مصر، وحب النيل يسري في عروقه؛ إذ قضى حياته متنقلاً بين دمشق ومصر:

وقد بنى نصه بأسلوب أدبيٍّ مسجوع، ولفَّه بطيفٍ من ألوانِ البلاغةِ والبديع، فجانس بين "فيه–يوفيه"، "الكبر–العبر"، "عظيم–عميم"، وقابل بين العبارتين: "يجيء إليها أحوج ما كانت إلى مجيئه–ينصرف أحوج ما كانت إلى انصرافه".

وأكرمَ النيل –الذي يُحِبُّ–بالنصوص القرآنية الكريمة تلميحاً، وتصريحاً، فاقتبس عبارته: "ساقه الله تعالى إلى مصر، وأحيا به بلدة ميتاً" من قوله تعالى:﴿ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[4]، كما ضمَّن نصَّه بآيتين كريمتين، محافظاً على بنيتهما ومعناهما الشريف؛ ليرتقي ببلاغة نصه وقوته الحجاجية.

* وافتتح العمري الباب الثالث بالحديث عن البحار فقال[5]: "اعلم أن البحر هو العنصر الأعظم، والمخلوق الأكبر، والعجب العجيب، والمألوف الغريب، وجميع العالم في دائرته، وعلى بعض ما انكشف عنه. وفيه أوضح الدلالات على قدرة خالقه، وعظيم خلقه، وبديع صنعه، وقد ذكره الله عز وجل في غير موضع من القرآن الكريم، كلها في مقام التعظيم له، وضرب المثل به كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[7]، فلو لم يكن البحر الغاية في العظمة، وأنه لا يتخيل أحد أنه ينفد لما ضرب المثل به وأنه ينفد ولا تنفد كلماته ولو جيء بمثله مدداً. وفي الآية الثانية مبالغة؛ أي إنه لو أن هذا البحر –وهو هذا العظيم في أذهانكم، الكبير في صدوركم–ومثله سبعة أبحرٍ تمده لنفد وما نفدت كلمات الله، وهذا غاية في تعظيمه، لأن الكلام صفة المتكلم، وكلام الله صفة من صفات الله، لا يتناهى، ومثله بأكثر ما هو مستقر في صدور بني آدم أنه لا يتناهى. ومن تأمل هذا بعين التحقيق وقف منه على لطيفة لا يمكن التعبير عنها في تعظيم خلق البحر، وهو على ما في ركوبه من الخطر العظيم والضرر الكبير يفيد الأموال الجمة، والنعم الضخمة، ويخرج اللؤلؤ، ويقذف العنبر، وينقد الذهب...وأي مكان بَعُدَ عن البحر المَلِح أربعة عشر يوماً لا يمكن سكنه لإفراطهِ في الوخامة، وسوء الأبخرة، إذ كان الملح ملطفاً للهواء، ومفتحاً للسُّدد؛ ولهذا يعرض لمن بَعُدَ عن البحر تولد البرودة القاتلة؛ لغلظ جوهر الهواء وضعفه عن التحليل. وما ذكر البحر في موضعٍ من القرآن الكريم، ولا مكانٍ من الحديث النبوي –على قائله أفضل الصلاة والسلام–إلا في موضع التعظيم، وقد منَّ الله به على خلقه،

---

[1] – **مسالك الأبصار** 156/1.

[2] – سورة يس، الآية 38

[3] – سورة الحديد، الآية 21.

[4] – سورة فاطر، الآية 9.

[5] – **مسالك الأبصار** 165/2–167.

[6] – سورة الكهف، الآية 109.

[7] سورة لقمان، الآية 27.

وسخَّره للعباد، وسجَّره[1] عن البلاد، وجعله آية لمعتبر، وغاية لمتفكر، وهو أحد السبيلين، ومكاسبه أوفر من البر، وريحه أعظم بما لا يقاس، ولا يدخل في حد قياس. والتجار تقول البحر يعطي جزافاً[2]، ويأخذ جزافاً، وفي البحر خزائن الرزق، ووجوه المنافع، وقد خلقه الله فأبدع خلقه، وشقق به أقطار الأرض؛ لما اقتضته دقائق الحكمة لحمل الأثقال، وركوب الرفقة الكثيرة إلى الأماكن البعيدة، والبلاد الشاسعة، وقد كرم الله بني آدم بركوبه وحملهم عليه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3]، فسبحان من خلقه وأبدعه، وأتقن منه ما صنعه، وبث فيه أنواع الحيوان وأصناف الدواب، وصرَّف فيه نوع الإنسان وذلل لهم مناكبه، وسهل مذاهبه، ويسر لهم مراكبه، ويسر راكبه فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]، وقد جعل منه رزقاً طيباً، وملبساً فاخراً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[5]، وجعل أعلامها يهتدى بها في ظلماتها ويعرف بها مواضع جهاتها وقال تعالى وقد ذكر البحرين الشروب والمالح وما للناس فيهما من عموم المصالح فقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[6]، ومن أمعن التفكر في هذه الآيات عرف ما جعل الله في البحر من ضروب المنافع وأشتات المصالح، وهو الآية الكبرى لمن عرف عميم نفعه وعظيم قدرة الله في تسخيره، وجليل صنعه. والبحر تختلف أحواله وأحوال الراكب عليه، فيكون مرة هادياً مطاوعاً، ومرة هائجاً ممتنعاً، ومرة موافقاً ممكناً، فإذا كان هادياً مطاوعاً –وهو أجود أحواله، وأحسن أوصافه، ولا يكون ذلك غالباً إلا في الفصل المناسب، والريح الموافق–وذلك الوقت يتصرف راكبه كيف أراد، ويحطُّ على حسب اختياره، وإذا كان هكذا كان أسهل من البر، وأقل مشقة وأخف كلفة وأجمع شملاً للمسافر ومتاعه وأتباعه وغلمانه وسائر ما يكون معه. وهو مقيم سائرٌ، وحالٌ ظاعنٌ، كأنه وسط داره على فراشه، متمرفقاً على وسادته، بين أهله وأولاده وغلمانه، ومعه زاده وماؤه، وطعامه يُطبخ له بكرة وعِشاءً، يُغدى عليه ويُراح بما يريد...هذا كله والريح مطاوع، والبحر متابع والأمواج قد ألقت ما فيها وتخلت...وجرت الرياح بما تشتهي سفنه، وتنتهي معه كيفما امتد رَسَنُه[7]".

الطابع الجغرافي للنص: استهلَّ العمري حديثه الجغرافي عن البحر بوصف عظمته وغرابته بين الأماكن الجغرافية، كما وصف اتساعه وامتداده على رقعة كبيرة من الأرض، وبيَّن تجلي قدرة الخالق، ودقيق صنعه في هذا المخلوق، ثم سرد جملة من منافعه للناس، فهم يركبونه قاطعين البلاد، باحثين عن خيرات الله، ويستخرجون منه المجوهرات الثمينة، والأطعمة الفاخرة.

وشرع العمري بعد ذلك يذكر فضل البحر المَلِح في تلطيف الهواء، وفتحِ السُّدد، وهو أحد السبيلين في التنقل، ومصدر رزق كبير للتجار، فقد شقَّ الله تعالى به أقطار الأرض، وحمل على ظهره الرفقة والأثقال، وحوى في بطنه شتى أنواع الحيوان وأصناف الدواب.

ثم تكلم العمري على أحوال البحر ما بين الهدوء والهيجان، وذكر حال المسافرين فيه، والفصول المواتية للإبحار فيه، وأحواله مع الريح، وبيَّن فضل السفر فيه على البر.

الطابع الأدبي للنص: بنى العمري نصَّه الجغرافي بأسلوب مسجوع، ولفَّه بطيفٍ واسع من ألوان البلاغة والبديع، فجانس بين كلماته، واستخدم الطباق لإبراز التباين بين أحواله، وأكثر من الاقتباسات القرآنية لتعزيز قدرته الحجاجية على إثبات صحة أفكاره، كما ضمَّنه الأبيات الشعرية الشهيرة:

---

[1] – "سَجَّرَه ملأَه". **لسان العرب**، ابن منظور، مادة (سجر).

[2] – "الجَزْفُ: الأَخذُ بالكثرة...جزافاً: بغير كيل". **المصدر نفسه**، مادة (جزف).

[3] – سورة الإسراء، الآية 70.

[4] – سورة الجاثية، الآية 12.

[5] – سورة النحل، الآيتان 14و15.

[6] – سورة فاطر، الآية 12

[7] – "الرَّسَنُ: الحبل". **لسان العرب**، مادة (رسن).

–فجانس بين "سخَّره–سجره"، وطابق بين "مألوف–غريب"، "بكرة–عشاء"، "يغدى–يراح"، وقابل بين "هادياً مطاوعاً–هائجاً ممتنعاً–موافقاً ممكناً"، و"مقيم سائرٌ–حالٌّ ظاعنٌ".

–وأكثر من تضمين الآيات القرآنية في نصه منبهاً عليها، ومحافظاً على بنيتها ومعناها، ليعضد أفكاره بما فيها من بلاغة فائقة البيان، فكان يذكر الآية الكريمة وينفد من خلالها إلى إبراز عظمة الخالق في بديع خلقه.

–وعمل على اقتباس بعض الآيات القرآنية من دون التنبيه عليها، فاقتبس عبارة "ألقت ما فيها وتخلت" من قوله تعالى:﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾[1]، فحافظ على بنية اقتباسه، وصرف معنى عبارته عن معنى الآية الكريمة، فالأرض هي التي ألقت ما فيها في الآية الكريمة، في حين الأمواج هي الملقية في نصّ العمري.

–وأثرى العمري نصه بالتضمين الشعري، فضمن عبارته "وجرت الرياح بما تشتهي سفنه" بقول المتنبي[2]:

ما كل ما يتمنى المرءُ يدركهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

إلا أنه صرف البيت عن معناه الحقيقي، فرياح العمري تجري بما تشتهي سفنه، في حين رياح المتنبي تجري بما لا تشتهي سفنه، وأراد العمري السفن والرياح على الحقيقة، في حين كنَّى المتنبي بالسفن والرياح عن الأماني وظروف تحقيقها.

إذن: جمع نص العمري بين لونين من التأليف الجغرافي في النص، فصاغ بعض عباراته بأسلوب العقل والمنطق بعيداً عن البديع والصنعة، ومن ذلك العبارات التي تكلم فيها على فائدة البحر في تلطيف الهواء وتفتيح السُّدد، في حين صاغ عبارات أخرى بأسلوب أدبيٍّ عالٍ مشبع بالصور والأخيلة والبديع والموسيقا، وهو الغالب على النص، فجمع بين العلم والأدب.

* وأتبع العمري حديثه عن البحار بفصل تحدَّث فيه عن الآثار البينة في أقطار الأرض، مسوغاً ذلك بقوله[3]: "ثم إنا نحن نعقب ذلك بذكر جمل من الآثار البيّنة في أقطار الأرض ما جرت مجرى الأعلام، وقامت في الاستدلال مقام ما قدّمنا ذكره من الجبال والأنهار والرمل والبحيرات...فنبدأ بذكر المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى"، ثم قال في ترجمة الكعبة المشرفة[4]: "البيت الحرام، أوّل بيت وُضِع للناس، ورُفع على قديم الأساس، بُني مثالاً للبيت المعمور[5]، ودُعِي إليه كل مأمور، وأذّن إبراهيم –صلوات الله عليه–إليه بالحجّ، ودعا إليه الناس فأتوه من كل فجّ، حَجَّته الملائكة قبل آدم، وجاءته وعهده ما تقادم، ويُقال: إنه لم يبقَ نبيّ حتى حجَّه، ويعد عدة أنبياء دُفنوا في الحجرِ منه، ولم تزل شعائره مكرّمة، ومشاعره محرّمة، عُظِّم في الجاهليّة والإسلام، وحُرِّم من حيث بُنِيَت الأعلام، ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[6]، وهي البيت المحجوج المحجوب، والمقصود بالزيارة قصد الوجوب، وبه الحجر الأسود، الذي هو يمين الله في أرضه، والشاهد لمن حجّ وقبّله بأداء فرضه، سماء الدعاء، وحَرَمُ تحريم الدماء، يأمن به الحَمام ساكناً، ومن دَخَلَه كان آمِنا. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[7]".

الطابع الجغرافي للنص: تحدَّث العمري عن الكعبة المشرفة مبيناً فضلها على سائر الأماكن، فهي أول بيت وضع للناس، وبنيت على القواعد التي وضعها إبراهيم عليه السلام، ثم تكلم على موقعها، ومكانتها الدينية بوصفها محجاً للمسلمين، كما دفن عدد من الأنبياء في حجرها، وهي يمين الله في أرضه، ومحط تقديس في الجاهلية والإسلام، وفيها الحجر الأسود، وبها مقام إبراهيم عليه السلام.

---

[1] – سورة الانشقاق، الآيتان 3و4.

[2] – **ديوان أبي الطيب المتنبي، (**اللامع العزيزي في شرح ديوان المتنبي)، أبو العلاء المعري، ص669.

[3] – **مسالك الأبصار** 175/1.

[4] – **المصدر نفسه** 175/1.

[5] – "وهو كعبة أهل السماء السابعة". **مختصر تفسير ابن كثير**، ابن كثير الدمشقي، 388/3.

[6] – سورة الحج، الآية 32.

[7] – سورة آل عمران، الآيتان 96–97.

الطابع الأدبي للنص: ترجم العمري للكعبة المشرفة ترجمة أدبية دينية مسجوعة، وجانس بين الكلمات، واقتبس من آي الذكر الحكيم ما عطَّر به نصَّهُ، فبدا النص وكأنه عقد لآلئ انفرط، فكل لؤلؤة منه مقبوسة من آية كريمة:

-فقد اقتبس عبارة "البيت الحرام أوّل بيت وُضِع للناس" من قوله تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ سورة آل عمران، الآية 96.

-ولمَّح بعبارته: "ورُفع على قديم الأساس" إلى قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ سورة البقرة، الآية 127.

-واقتبس عبارة "وأذّن إبراهيم -صلوات الله عليه-إليه بالحجّ ودعا إليه الناس فأتوه من كل فجّ " من قوله تعالى:﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾سورة الحج، الآيتان 26-27.

-واقتبس عبارته "من دخله كان آمناً" من قوله تعالى:﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾سورة آل عمران، الآية 97.

-واقتبس قوله "يمين الله في أرضه" من قوله ﷺ "إِنَّ الرُّكْنَ يَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ"[1].

-وجانس العمري بين كثير من كلماته مثل "ناس-أساس"، "معمور-مأمور"، "حج-فج"، "شعائر-مشاعر"، "محجوج-محجوب"، "دعاء-دماء".

-وطابق بين "الجاهلية-الإسلام"، وكنَّى بقوله "حرم من حيث بنيت الأعلام" عن أزلية تحريمه، فالأعلام قد وجدت منذ وجدت الأرض، وكنى بقوله "المقصود بالزيارة قصد الوجوب" عن وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً، وكنَّى بالعبارات الأخيرة عن استجابة الدعاء فيه، وحرمة الدماء في أرضه.

* وبعد أن فرغ العمري من الحديث عن المزارات والآثار المشهورة شرع في الحديث عن الديارات، فترجم لأديرة كثيرة منها:

دير شَقِّ مَعْلُولا[2]: "وهو بباطن جُبَّة عسال، وهو بناء روميٌّ بالحجر الأبيض، مُعَلَّق بسُقيف، وبها صدْع فيه ماء ينقط، نحو الذي بصيد نايا، ويأخذه النصارى للتبرك، معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر، وإنما الاسم للذي بصيد نايا".

الدير الأبيض[3]: "بُنِيَ بالحجر الأبيض، وزُيِّنَ في أبنيته، ووُسِّع في قدر أفنيته، وهو غربي النيل... يتضاحك في جنباته النُّوَّار، وتخضَرُّ فيه شقاق الزروع، وتكثر فيه مصائد الطير، ويكون من الحسن في غاية تملأ البصر، وتزيد على الخبر. ومررنا به صحبة السلطان، ونزلنا على تلك الرابية، وأشرفتُ على البركة وفيها قارب يصاد فيه السمك، ومرّت الأطلابُ مُزَيَّنَة التِرك[4]، وجياد الخيل، فسُئِلت أن أعمل في مثل هذا شيئا، على رسم ما يقال في الديارات. فقلت:[من الرجز]

يوْمٌ لنا بالدَّيْر، دير الأبيضِ قد انقضى وطِيبُه لم ينقضِ

قد جئْتُه في العَسْكر المنصُور فغَلّق الأبوابَ كالمحصُورِ".

الطابع الجغرافي للنص: تحدث العمري بداية عن دير شق معلولا، فذكر موقعه الجغرافي، ووصف شكله ولونه، وطرازه المعماري، وتحدث عن مكانته الدينية، ثم تحدَّث عن الدير الأبيض، فوصف شكله المعماري، ولونه، وأفنيته المتسعة، وموقعه الجغرافي غربي النيل، والزروع التي تحف به من كل جانب، وذكر قصة جرت له، وأشعاراً قالها فيه.

الطابع الأدبي للنص: بنى العمري نصه الأول بلغة علمية جافة، فسرد ما يعرفه عنه مقتضباً ما أمكن شأنه شأن أيّ جغرافيٍّ آخر، في حين تحدث عن الدير الأبيض بأسلوب مسجوع، ولغة أدبية عالية، ووشى كلامه ببعض البديع والتصوير، فوصفه وصفاً دقيقاً،

---

[1] - **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، محمد بن العباس المكي الفاكهاني، 271/2.

[2] - **مسالك الأبصار** 386/1.

[3] - **مسالك الأبصار** 397/1-403.

[4] - "أتخيل أن الناسخ غيَّر كلمة **اليرك** -لأنه لم يفهمها-بكلمة **الترك**، واليرك كلمة تركية كانت فاشية الاستعمال بمصر، على عهد المماليك، ومعناها السلاح...ويكون المعنى أن الأطلاب مرت مزينة أسلحتها وخيلها الجيدة، والطُلب، بضم الطاء جماعة من الجنود يكونون في خدمة الأمير". **مسالك الأبصار** (أحمد زكي باشا) 1/ 16 بعد ص 398(تصويبات الجزء الأول في آخر السفر).

وصوره أبهى تصوير، وتحدث عنه حديث العاشق الخبير، وأنشد أبياتاً كثيرة من الشعر الذي نظمه فيه، امتدت على عدة صفحات، ونُظمت على عدة بحور[1].

وبذلك يكون العمري قد قدم لنا معلومات جغرافية نافعة بأساليب متباينة، فبنى بعضها باللغة الجغرافية السائدة، وبنى بعضها الآخر بلغة أدبية عالية، وأثراها بالأبيات الشعرية.

النوعُ الثَّانِي: الممالك (المجلدان الثالث والرابع)جعله العمري في خمسة عشر باباً، وتحدَّث في كل باب عن مملكة منهم، وهم على التوالي: مملكة الهند والسند، ممالك بيت جنكيز خان، مملكة الجبل، مملكة الجبال، مملكة الأتراك بالروم، مملكة مصر والشام والحجاز، مملكة اليمن، ممالك المسلمين بالحبشة، ممالك مسلمي السودان، مملكة مالي وما معها، مملكة جبال البربر، مملكة إفريقية، مملكة بر العدوة، مملكة الأندلس، العرب الموجودون في زمن العمري وأماكنهم.

*تحدَّث العمري في الباب الخامس عن مملكة الأتراك بالروم، فافْتَتَحَ كلامه بمُقَدِّمَة أدبيةٍ بلاغيةٍ، قال فيها[2]: "أمَّا المسماةُ الآن بمملكةِ الرومِ فقد كانتْ مملكةً لا تُرامُ، ولا يُحلِّقُ إليها مَرامٌ، وهي مما هو من الخليج القسطنطيني ممتداً على جنوب بحر نيطش[3]، وماء نيطش محجوزة بجبال يزل الطَّرف عن صهواتها، ويخل الطِّرف[4] بعوائدها في اقتحام حجراتها، وكانت آخر وقت –زمان بقايا بني سلجوق–معدن الخيرة والخير، ومسلك مسكن الملك، صاحب القبة والطير[5]، وكان لسلطانها من إرث آبائه حرمة محفوظة، ونعمة على معاطف الملوك ملحوظة، وقد تقدم في هذا الكتاب ما ينبه على ما لهذه البلاد في المجد من الطارف والتلاد.

كانت على عهد الروم –الباقي عليها نعمتهم إلى الآن–محتبك[6] الأعنة، ومشتبك الأسنة، دار القياصرة، ومكسر الأكاسرة، وكان لملكها الرتبة العلياء، وكانت بقسمة التعديل ثلث الدنيا، لأنه لم يكن يسمى من ملوك الأرض إلا ملوك الفرس والروم والترك...فالروم لهم الثلث وهم أهل التثليث[7]، وهذا الذي نحن في ذكره الآن مما وقع في قسمهم، وطبع إلى وقتنا بطبائع اسمهم، هو الواقع على شرقي الخليج القسطنطيني متصلًا بأرمينية وديار العرب والعواصم والشام.

وهو أثرى الممالك بلا احتشام، خلا أنه بكثرة الثلوج كالح الوجه في شبابه، أشيب اللمة[8] في قبابه، لا يستسقي له محب لا تراك[9] ولا يسام[10]، ولا بارق فيه لعارضة برق ولا يشام[11]، إلا أن صخوره تتفجر ماءً وتتبخر أنواءً، تعقد دون السماء سماء، فتخصب زرعها، ويخطم[12] المَحل ضرعها، ويخصف ورق الجنّة على الحدائق ثمرها وينعها، وتطرب ورقها[13] لمنظرها البديع، ومحبرها[14] من صناعة صنعاء الربيع، فلا تسمع إلا كل مطربة تناجي النجيّ[15] وتشجي الشجي، وتخلب قلب الخلي، وتهب الغواني ما في

---

[1] – فقد ترجم العمري للدير بنصف صفحة، في حين شغلت الأبيات التي نظمها بقية الصفحات. انظر: **مسالك الأبصار** 1/397–403.

[2] – **مسالك الأبصار** 3/213–214.

[3] – ورد ذكره في بعض المصادر باسم: "بَحْرُ بُنْطُس: وهو في وسط المعمورة بأرض الصقالبة والروس". **معجم البلدان**، ياقوت الحموي 1/342.

[4] – " الطِّرْفُ: الفَرَسُ الكريمُ الأَطرافِ؛ يعني الآباء والأُمّهات". **لسان العرب**، مادة (طرف).

[5] – صاحب القبة والطير: هو سلطان بني سلجوق. انظر: **عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين**، د عبيد الله إبراهيم، ص189.

[6] – "التحْبِيك: التوثيق، وقد حَبَّكْتُ العقدة أَي وثقتها"، و"العنان: اللجام". **لسان العرب**، مادتا (حبك)، و(عنن).

[7] – لأنهم يؤلهون عيسى وأمه مع الله تعالى.

[8] – " اللِّمّة: شعر الرأْس بالكسر إذا كان فوق الوَفْرة". **لسان العرب**، مادة (لمم).

[9] – جاءت في المخطوط على الشكل التالي معجمة بلا نقاط: [illegible]. **مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، 3/ اللوحة 110 يسار.

[10] – السَّوْمُ أَن تُجَشِّمَ إِنساناً مشقة أَو سوءاً أَو ظلماً". **لسان العرب**، مادة (سوم).

[11] – شامَ السَّحابَ والبرقَ شَيْماً: نظرِ إليه أين يَقْصِدُ وأين يُمْطر". **المصدر نفسه**، مادة (شيم).

[12] – "خَطَمْتُ البعير: إذا كَوَيْتَهُ خَطّاً من الأَنف إلى أحد خديه". **المصدر نفسه**، مادة (خطم).

[13] – "ويقال للحمامة وَرْقاء". **المصدر نفسه**، مادة (ورق).

[14] –"الحِبَرَةُ والحَبَرَةُ: ضَرْبٌ من برود اليمن مُنَمَّر، والجمع حِبَرٌ". **المصدر نفسه**، مادة (حبر).

[15] – "النَّجْوى والنَّجِيُّ: السِّرُّ، والنَّجْوُ: السِّرُّ بين اثنين". **المصدر نفسه**، مادة (نجا).

أطواقها من الحلي، يعجب ثوبها السندسي، ونباتها المتعلق بذيل النهار سجافها القندسي[1]، فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ولا ينظر إلا نساءً كالحور العين، وولداناً كالملائك".

الطابع الجغرافي للنص: تكلم العمري على جغرافيا مملكة الأتراك بالروم، فذكر موقعها الجغرافيّ، ووصف حدودها، وتحدث عن امتدادها الجغرافي، ثم انتقل إلى التعريف بسلاطينها، فسرد طائفة من أخبارهم، وتحدث عن مُلكِهم وقوتهم، وثرائهم، وتحدث بعد ذلك عن مناخ بلادهم، وأحوال الزراعة فيها، وذكر خصوبة أراضيهم، وكثرة الهطولات في بلادهم، وانتشار الجنان فيها، وجمال أهاليها، إلى غير ذلك من المعلومات الجغرافية التي اعتاد علماء الجغرافية على ذكرها، فحقق الغاية النفعية من النص، وأدى التأليف على أحسن ما يرام من عالمٍ جغرافيٍّ.

الطابع الأدبي للنص: إلا أنه نقل هذه المعلومات بلغة أدبية عالية، وحشدها بطيفٍ من ألوان البلاغة والبديع وفقاً لذوق أهل عصره، فبنى تأليفه بأسلوبٍ مسجوعٍ، وجانس بين كلماته، ووشاه بالطباقات، وعطره بالاقتباسات الكريمة:

-فجانس بين "الطَّرف-الطِّرف"، "الخير-الطير"، "محفوظة-ملحوظة"، "مكسر-أكاسرة"، "محتبك-مشتبك"، "أعنة-أسنة"، "الشام-احتشام"، "شبابه-قبابه"، "يسام-يشام"، "بديع-ربيع"، "صناعة-صنعاء"، "الخلي-الحلي"، "أرائك-ملائك"، "بلاد-تلاد"، "وَرَق-وَرِق".

-وطابق بين "الطارف-التلاد"، "عليا-دنيا"، "شبابه-أشيب"، "تخصب-محل".

-وكنَّى بقوله: "يزل الطرف عن صهواتها" عن كثرة محاسنها، أي لا يستطيع الطرف أن يتوقف، بل يجول في محاسنها الكثيرة، وكنَّى أيضاً عن جمالها بقوله: "محبرها من صناعة صنعاء الربيع،"، أي إنها بلاد جميلة تشبه البرود اليمانية

-واقتبس قوله: "فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ولا ينظر إلا نساءً كالحور العين، وولداناً كالملائك" من قوله تعالى:﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ۞ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ۞ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ۞ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ۞ وَحُورٌ عِينٌ۞ ﴾سورة الواقعة، الآيات 15 -22.

-واقتبس قوله: "ويخصف ورق الجنّة" من قوله تعالى:﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾سورة طه، الآية 121.

وبذلك يكون العمري قد أدى التأليف العلمي بأسلوب أدبي شائق، فقدم لنا العلم النافع بأسلوب ماتع.

أقوالُ علماء الجغرافية في التَّأليْف الجغرافيّ عند العُمَرِيّ

تنبه الجغرافيون إلى مسالك الأبصار، وعرفوا مكانتها في المكتبة العربية، وقد ذكر بعض العلماء العرب والأجانب جانباً من الصفات التي تميز بها التأليف الجغرافي عند العمري:

- فقد بيَّن الباحثُ عبدُ الرحمنِ حميدة بعد دراسةِ القسمِ المتعلقِ بالجغرافية في مَسَالِكِ الأَبْصَارِ أنَّ قسماً من مَسَالِكِ الأَبْصَارِ قَدْ اختصَّ بوصفِ الأمكنةِ الجغرافيةِ والأبنيةِ والمعابدِ الشهيرةِ في الأوساطِ المثقفةِ في المشرقِ، ورأى أنَّ هذا القسمَ من أكثر الأقسامِ ميلاً للأدبِ في كتابِ العُمَرِيّ، ثم نقل ما جاء في المسالك عن دير صُباعي[2]: "وهو على شاطئ دجلة الشرقيّ، فوق تكريت بقليل، وهو كثير الرهبان. وله مزارع وجنينات، ولرهبانه يسار وغنى، وفيه يقول بعض لصوص بني شيبان:[من الوافر]

ألا يا ربِّ سَلِّم دير صُباعى	وزِدْ رُهبان هَيْكلِه اجتماعا
فكم جِئْناه أمواتا سِـغَـاباً	ورُحْنا منه أحياءً شِبَاعا
فيَا للقَصْف ما أسْرى نَبِيذا	ألذَّ طِلاً وأحسنَه شُـعَـاعا
لـنِعمتـه ومنته علينـا	عَـمَـرْنـاه وخَـرَّبْنا الضِّيَاعا".

[1] – "القُنْدُس في العربية هو: نوع من الفرو يتخذ من حيوان برى بحري معروف...وتلبس فراءه الأروام على رؤوسها". **المعجم العربي لأسماء الملابس**، د. رجب عبد الجواد إبراهيم، مادة (قندس).

[2] – انظر: **أعلام الجغرافيين العرب**، ص557، **مسالك الأبصار** 345/1.

وكلامُهُ هذا مجانبٌ للصوابِ، فلو اطَّلعَ عَلَى المسالكِ كاملةً لأدركَ أن قسمَ تراجم الشُّعَرَاء هو أكثر الأجزاء ميلاً إلى الأدبِ، فقد ترجمَ العمري فيه لشعراءِ كلِّ العصورِ، بدءاً من الجَاهِلِيَّةِ، ووصولاً حَتَّى زمانهِ عبر ستة أسفار، وقد شكلتْ اختياراتُه لبَعْض الشُّعَرَاء ما يصلحُ لأن يكوّن كتباً صغيرةً ذات قيمة أدبية عالية، فقد ترجم للسراج الوراق[1] مثلاً في مئة وإحدى وسبعين صفحة، شغلت أكثر من نصف السِّفْرِ التَّاسِعَ عشرَ، وشكلت ملخصاً لديوانه[2].

– ودرس المستشرق كراتشكوفسكي[3]القسم الجغرافي من مسالك الأبصار وخرج بنتائج عدّة منها:

1–إن موسوعةَ العُمَرِيّ تعادلُ موسوعةَ النويريّ من حيث الضخامةِ، إلا أنَّ مضمونَها أضيقُ بكثيرٍ من مضمونِ موسوعةِ النويريّ، إذ تقتصرُ مادتُها عَلَى الجغرافية والتاريخ وحدهما، وينعكسُ هذا في العنوانِ[4].

إلا أنَّ كراتشكوفسكي عادَ في نهايةِ كلامهِ وذكر أبوابَ الكتابِ وفصولِهِ التي تتكلمُ على طوائفِ العلماء والتراجمِ والطَّبِيْعَةِ والحَيْوَان والنَّبَات وغيرِ ذلك، وهذا يناقضُ تخصيصَ الكتابِ بالجغرافية والتاريخِ، فالقسم الثاني من المسالك يتحدث عن الأدب والديانات والعلوم الطبيعية (الحيوان والنبات والمعادن والأحجار)، والتاريخ، لكن الباحث نقل أقسام الكتاب من الخطبة التي افتتح بها العمري كتابه[5]، وخرج برأيه، من دون أن يطلع على القسم الثاني من المسالك.

2–إن النوعَ الأولَ في الممالكِ يبدو وكأنَّه يمثلُ مرحلةً انتقاليةً، فإنَّه يحوي مفاخرةً بين المشرقِ والمغربِ تمسُّ الطَّبِيْعَةَ والحَيْوَان بل طوائفَ العلماء ممَّا يذكرُنا بَعْض الشيء بالنمطِ القَديمِ في "الفضائلِ"، أي مزايا البلدانِ والأشياءِ المختلفةِ، ولو أَنَّهُ يصوغُه بالطبعِ في صورةٍ مختصرةٍ وفي قالبٍ أدبيٍّ[6].

ورأيه هذا يشي بأنه اطلع على العنوانات اطلاعاً، ولم يتفحص هذا النوع بتمعن، وهو معذور في هذا؛ لضخامة هذا النوع، ولأنه معنيٌّ بالتأليف الجغرافي أكثر.

3– كوَّنَ كراتشكوفسكي فكرةً عن هدفِ العُمَرِيّ الأساسيّ من تأليفِ هذا الكتابِ، وهو أنْ يضعَ موسوعةً تاريخيةً جغرافيةً جامعةً لا تقومُ عَلَى أساسٍ علميٍّ صرف، بل عَلَى أساسٍ أدبيٍّ عريض[7]، ورأى أنَّه رجلٌ نقالةٌ، جامعٌ لصنوفِ الْعُلُوْم، وموسوعيٌّ، لكنَّه يتميزُ بالقليلِ من الأصالةِ، وهو يعوضُ هذا النقصَ باطلاعِه الواسعِ، فقَدْ هيَّأ لهُ عملُهُ الحكوميُّ الاطلاعَ عَلَى الوثائق، كما أنَّ مصادرَ أخبارِهِ ومَعْلُوْمَاتِهِ متعددةٌ للغايةِ، ما مكنَّه من إخراجِ لوحةٍ مفصلةٍ في وصفِ العالمِ المعاصرِ لهُ.

وفي كلامه شيء كثير من الصحة؛ فمن اطلع على ما في موسوعة العمري، وقرأها بفهم وتمعن أيقن أن العمري كان يلجأ في كل علم يتناوله إلى رأس هذا العلم من أهل زمانه، وأدق ما صنف في بابه من الكتب، فضلاً عن أنه كان يدون كل ما يسمع من سفراء البلاد الذين كانوا يردون على ديوان الإنشاء، وممن يجتمع بهم من العلماء والأدباء القادمين إلى البلاد؛ لذا فموسوعته غنية بالأخبار التي تفرد بها.

– أما العالم بول كازانوفا[8]فقد قارن بين وصفِ المقريزيّ لقلعةِ الجبلِ ووصفِ العُمَرِيّ لها[1]، وخرجَ بنتائج عدّة، منها:

---

[1] – هو عمر بن محمد بن حسن، الشاعر المشهور والأديب المذكور؛ ملكت ديوان شعره، وهو في سبعة أجزاء كبار ضخمة بخطه، كان حسن التخيل جيد المقاصد صحيح المعاني عذب التركيب، قاعد التورية والاستخدام، عارف بالبديع وأنواعه. انظر: **فوات الوفيات** 140/3 (379).

[2] – انظر: **مسالك الأبصار** 11/19–181 (568).

[3] – وهو أغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي (ت:1951م): مستشرق روسي عالم بالآداب العربية ولاسيما الجغرافيا، كان عضواً في الجمعية الجغرافية الروسية ونائباً لرئيسها. انظر: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** (المقدمة) 1/1–5.

[4] – **المرجع نفسه** 411/1–412.

[5] – انظر: **مسالك الأبصار** 107/1–118.

[6] – انظر: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي** 412/1.

[7] – **المرجع نفسه** 413/1.

[8] – وهو أحد أعلام مدرسة الاستشراق الفرنسية التي وجهت جهودها نحو الدراسة التاريخية والأثرية لعواصم مصر الإسلامِيَّةِ، باستخراج النصوص التاريخية الخاصة بالمعالم الأثرية من المصادر المعاصرة، ثُمَّ تطبيقها عَلَى الطَّبِيْعَةِ في ضوءِ ما بقي من أطلال؛ لإحياء معالمها الكاملة في مراحل ازدهارها. انظر: **تاريخ ووصف قلعة القاهرة**، بول كازانوفا (المقدمةُ) ص 1.

– يعود الفضل للعُمَرِيّ في حفظِ معالمِ بَعْض العمائرِ التي اندثرتْ، وكانَ قَدْ وصَفَها بدقةٍ[2]، وقد اتسم وصفِ العُمَرِيّ للقلعةِ بالدقة والأصالةِ، لأنه وصَفَها منْ وحيِ معايشتِهِ لها بحكمِ عملِهِ في ديوانِ الإنشاءِ وملازمتِه لها في أثناءَ عملِه مع ابنِ قلاوون، وقد أَخَذَ كثير من العلماء عن العمري، بمن فيهم المقريزيّ الذي أَخَذَ عنهُ أكثر عباراتِه وضوحاً، ونقل عنهُ كلمةً كلمةً مع إغفَال نسبةِ الكلامِ إليه، وقد بدا الاضطراب واضحاً في عبارةِ المقريزيّ[3].

وهذا يدعو للاستغرابِ لأنَّ المقريزيّ ابن مصرَ الذي نشأ فيها، والعُمَرِيّ ابن دمشقَ وقَدْ عمل في القاهرة مدة طويلة من الزمن في خدمة ابن قلاوون، لكن العمري نقل وصفه مما رآه، وعاينه بدقة، أما المقريزي فقد نقل وصفه من الكتب.

الخاتمة:

انقسمَ التَّأْلِيْف الجغرافيُّ عند العُمَرِيّ قسمينِ، القسم النقلي، وهو القسمُ الأكبرُ، جمَعَهُ من بطونِ الكتبِ، وأفواهِ الرجالِ، وقد أكثر العمري من النقل النصي عن هؤلاء وقلما تصرف بالعبارة أو نقل معلومة بلغته وأسلوبه، أمَّا القسمُ الثَّانِي فهو القسمُ الذي صبَّ فيهِ علمَهُ، وما خَبِرَهُ عن الجغرافية بلغته وأسلوبه.

– حافظ العمري على الغاية التأليفية، فنقل المعلومات الجغرافية بدقة وأمانة، إلا أنه نقلها بلغة أدبية عالية.

– وشى بعض نصوصه الجغرافية بطيفٍ من ألوان البلاغة والبديع، ولونها بالصور والأخيلة.

– كثَّف من حضور النصوص القرآنية في تأليفه، مشيراً إليها تارة، ومقتبساً بعض معانيها تارة أخرى، وجعل النص القرآني مصدراً أساسياً وحيوياً لمناقشةِ القضايا الجغرافيةِ.

– تباينتْ لغتُهُ في تأليفه بينَ العلمية الدقيقةِ والأدبيةِ المعبرةِ.

– اتسمَت ترجمته لبعض الأماكن بالجفاف التام، في حين ترجم للأماكن التي عاينها بنفسهِ بلغة أدبية رفيعة، ورُبَّمَا أضاف لها قصصاً جرت معه، وأشعاراً قالها فيها.

– وشى بعض تراجمه بأشعار قيلت فيها.

– قدَّم العمري للمكتبة العربية أدباً جغرافياً، أو جغرافية أدبية، وذلك موافقة لروح عصره الذي دُوِّنت فيه العلوم بلغة مزينة.

– ثمَّن علماء الجغرافية العرب والأجانب الجهد الذي قام به في تأليفه، وأثنوا على ما جاء فيه.

وبهذا يكون العمري قد قدَّم تأليفاً جغرافياً نافعاً ماتعاً، واستحق لقب العالم الأديب.

---

[1] – فصَّلُ القول في قلعة الجبل. انظر: **مَسَالِك الأَبْصَارِ** 3/ 330–334.

2 – انظر: **تاريخ ووصف قلعة القاهرة** ص116.

3 – انظر: **المرجع نفسه** 148–149.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، د. رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس (في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث)، ط1، القاهرة مصر، دار الآفاق العربية، مجلد واحد(2002م).
3. إبراهيم، د عبيد الله، عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين، بيروت لبنان، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مجلد واحد (2007م).
4. ابن تغري بردي، يوسف، المَنْهَلُ الصَّافِي والمُسْتَوفي بعدَ الوافِي، تح: د. محمد محمد أمين، القاهرة مصر، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب،7 أجزاء(1984م).
5. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كَشْفُ الظُّنُون عن أسامي الكتب والفنون، تح: محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت بيلكه الكليسى، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، مجلدان(1941م).
6. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، بيروت لبنان، دار صادر، 5مجلدات، (1977م).
7. حميدة، د. عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دمشق سورية، المطبعة العلمية، مجلد واحد(1995م).
8. دوزي، رينهارت، تكملةُ المعاجمِ العربيةِ، تر: د. محمد سليم النعيمي، ط1، بغداد العراق، دار الحرية للطباعة، 11مجلداً(1980م).
9. ديوان المتنبي (اللامع العزيزي في شرح ديوان المتنبي)، أبو العلاء المعري تح: محمد سعيد المولوي، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 3 أجزاء متتالية الأرقام(2008م).
10. السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، بيروت لبنان، دار الجيل، 12 مجلداً، (1992م).
11. الصفدي، صلاح الدين، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: د. علي أبو زيد وآخرين، ط1، دمشق سورية، بيروت لبنان، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، 6 مجلدات والأخير للفهارس(1998م).
12. الصفديّ، صلاح الدين، الوَافِي بالوَفَيَاتِ، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي، 29 مجلداً(2000م).
13. العسقلانيّ، ابن حجر، الدُّرَرُ الكَامِنَةُ في أعيانِ المئةِ الثامنةِ، تح: د. سالم الكرنكوي الألماني، بيروت لبنان، دار الجيل(1993م).
14. العُمَرِيّ، أحمد ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، ط1، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، 27 مجلداً(2010م).
15. . ج1–تح: أحمد زكي باشا، ط1، مصر، دار الكتب المصرية، 1924م.
16. الفاكهاني، محمد بن العباس المكي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تح: د. عبد الملك عبد الله دهيش، ط2، بيروت لبنان دار خضر، 6 أجزاء 3 مجلدات(1414ه).
17. القلقشندي، أحمد بن علي، صُبْحُ الأَعْشَى في صناعةِ الإنشاءِ، 15 مجلداً الأخير للفهارس، ط1، مصر، مطبعة دار الكتب الخديوية، (1914م).
18. القفطي، جمال الدين يوسف، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، عني بتصحيحه: محمد أمين الخانجي الكتبي، محافظة مصر، مطبعة السعادة، 1326ه.
19. كازانوفا، بول، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، تَرْجَمَة وتقديم د. أحمد دراج، القاهرة مصر، المكتبة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد واحد(1974م).

20. الكتبي، محمد بن شاكر، فَوَاتُ الوَفَيَات، تح: د. إحسان عباس، ط1، بيروت لبنان، دار صادر، 5مجلدات (الخامس للفهارس) (1973م).
21. ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، طبعة خاصة، دمشق، دار النمير، 3 مجلدات(1989م).
22. كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليا نوفيتش (MOSKOVA-LENINORAD 1957)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مجلدان (1963 م).

أ- المقريزيّ، تقي الدين، المُقَفَّى الكَبيرُ، تح: محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 8 مجلدات الأخير للفهارس(1991م).

ب- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ط3، بيروت لبنان، دار صادر، 15مجلداً(1414هـ).

ت- المهلبي، الحسن بن أحمد (2006م)، الكتاب العزيزي (المسالك والممالك)، تح: تيسير خلف، ط1، دمشق، التكوين للطباعة والنشر، مجلد واحد.

المخطوطات:

- العمري، أحمد ابن فضل الله، مخطوط مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، فرنسا، مكتبة باريس، الرقم (2325)، الناسخ: محمد السُعودي، 232لوحة.